

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

مكونات المذهب التومرتي وأثره في قيام دولة الموحيدين

The components of the Tumartian doctrine and its impact on the establishment of the Almohad state

سعدودي مليكة Saadoudi Malika

أستاذة محاضرة "ب"، قسم أصول الدين والحضارة، كلية العلوم الإسلامية والحضارة جامعة عمارثليجي – الأغواط –
مخبر الدراسات الإسلامية واللغوية

Lecturer, Department of Fundamentals of Religion and Civilization, Faculty of Islamic Sciences
and Civilization, Amar Telidji University – Laghouat –
Laboratory of Islamic and Linguistic Studies
m.saadoudi@lagh-univ.dz

تاريخ النشر: 2026/07/15

تاريخ القبول: 2026/06/17

تاريخ الاستلام: 2026/04/24

الملخص:

ظلّ المغرب الإسلامي عبر تاريخه مجالاً مفتوحاً لتأثير العديد من الحركات الدينية والسياسية الوافدة من المشرق الإسلامي. وتعدّ حركة ابن تومرت نقطة تحوّل حاسمة شهدها هذا المجال خلال القرن السادس الهجري، إذ كان للدولة الموحدية التي أسّسها دور بارز في إحداث تغيير عميق في عقيدة المجتمع. وقد مكّنته السلطة السياسية التي حازها من نشر مذهبه وترسيخه في بلاد المغرب، وساعده في ذلك منهجه الذي جمع بين البعد التربوي والنزعة الثورية، إلى جانب تأثر فكره بعدة تيارات، مما انعكس على طبيعة دعوته.

ومع ذلك، ظلّ مذهب العقدي محلّ اختلاف بين الباحثين؛ فهناك من اعتبره معتزلياً، وآخرون رأوه شيعياً، بينما نسبته كثيرون إلى الأشعرية، في حين ألحقه بعضهم بالمذهب الظاهري. ومن هنا يبرز التساؤل: من هو المهدي ابن تومرت؟ وما حقيقة مذهب العقدي؟ وكيف أثرت مكونات مذهب في قيام دولة الموحدين؟

وتسعى هذه الورقة العلمية إلى إعادة قراءة المسار الذي مرّ به ابن تومرت، مع التركيز على أبرز الأصول العقديّة التي قام عليها مذهب، بهدف الوقوف على حقيقته وتحديد معالمه.

الكلمات المفتاحية: ابن تومرت؛ المغرب الإسلامي؛ المذاهب؛ الأصول العقديّة؛ مكونات.

Abstract:

Throughout its history, the Islamic Maghreb remained an open space influenced by numerous religious and political movements originating from the eastern Islamic world. The movement of Ibn Tumart represented a decisive turning point in this region during the 6th century AH (12th century CE). The Almohad state that he founded played a prominent role in bringing about a profound transformation in the religious beliefs of society. The political authority he attained enabled him to spread and consolidate his doctrine across the Maghreb. This was further supported by his approach, which combined educational dimensions with a revolutionary tendency, as well as by the influence of various intellectual currents on his thought—factors that shaped the nature of his *الدعوة* (mission/preaching).

Nevertheless, his theological doctrine has remained a subject of debate among scholars. Some have considered him a Mu'tazilite, others viewed him as Shi'ite, while many attributed him to Ash'arism, and some associated him with the Zahiri school. This raises key questions: Who was al-Mahdi Ibn Tumart? What is the true nature of his theological doctrine? And how did its components contribute to the rise of the Almohad state?

This paper seeks to reexamine the trajectory of Ibn Tumart, focusing on the main theological foundations upon which his doctrine was built, in order to clarify its reality and define its characteristics.

Keywords: Keywords: Ibn Tumart; Islamic Maghreb; doctrines; doctrinal principles ingredients

مقدمة:

وقد اختلف المؤرخون في تفسير حركة ابن تومرت؛

فبينما اعتبرها بعضهم دعوة دينية إصلاحية، رأى آخرون فيها مشروعاً سياسياً، في حين ذهب فريق ثالث إلى أنها جمعت بين البعدين الديني والسياسي معاً. ويعود هذا التباين إلى تنوع الأساليب التي اعتمدها في دعوته، إذ جمع بين العمل العسكري والنشاط السياسي، إلى جانب البعد العقدي والفكري.

وتعدّ شخصية ابن تومرت من الشخصيات التي أثارت جدلاً واسعاً في المصادر التاريخية، سواء من حيث توجهها العقدي أو مشروعها السياسي. فقد ساعده منهجه الانتقائي

وصلت إلى بلاد المغرب الإسلامي منذ بدايات القرن الثاني الهجري عدة مذاهب وفريق قادمة من المشرق، مثل الخوارج الصفرية، والإباضية، والمعتزلة، والشيعية. غير أن معظم هذه التيارات تراجع مع مرور الزمن ولم يحافظ على حضوره إلا المذهب المالكي. ومع ذلك، شكلت مرحلة الإمام المهدي ابن تومرت تحوّلًا عميقاً في البنية العقديّة للمغاربة.

المحور الأول: التعريف بابن تومرت والظروف التي مربها أولا:- التعريف بابن تومرت

1- اسمه ونسبه

اتفق الباحثون على أن الاسم هو "محمد بن تومرت"، غير أنهم اختلفوا في تحديد نسبه. فقد ذكر البيهقي نسباً يربطه بسلسلة طويلة تنتهي إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ، حيث جعله منحدرًا من آل البيت، كما رُويت له سلسلة نسب أخرى تقود إلى الجذر نفسه. غير أن المختصين بالنسب وأهل هذا العلم لم يثبتوا صحة هذه الروايات، ما يثير الشك حول دقتها. ويُلاحظ من خلال هذه الروايات محاولة واضحة لربط نسب ابن تومرت بالرسول ﷺ، وهو ما يعكس بعدًا دينيًا عاطفيًا استثمر لاحقًا في دعوته الإصلاحية بالمغرب الإسلامي. وقد وافق الفاسي هذا الطرح، خاصة فيما يتعلق بالرواية الثانية، إذ أورد نسبًا مشابهًا ينتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. لكنه أشار أيضًا إلى وجود تشكيك في هذا النسب، حيث ذكر بعض المؤرخين، مثل ابن مطروح القيسي، أن هذا الانتساب غير مؤكد، وأن ابن تومرت في الأصل رجل من قبيلة هرغة التابعة لمصمودة، وقيل كذلك إنه من كنفيصة. وبذلك أضاف الفاسي بُعد الانتماء القبلي، مؤكدًا صلته بقبائل مصمودة في المغرب

وقد ذكر ابن خلدون الروايتين فقال "هو محمد بن عبد الله بن جليلد بن يامصال بن حمزة بن عيسا، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي إدريس الأكبر، الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامد وأهل السوس".¹

ويصل المراكشي نسبه إلى علي ابن أبي طالب فيقول "ومحمد هذا رجل من أهل سوس، مولده بها بضبعة منها تعرف بإيجلى أن وازغن، وهو من قبيلة تسى هرغة، من قوم يعرفون بإيسرغين، وهم الشرفاء بلسان الصامدة، ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه".²، وهذين الأخيرين انتهيا في نسبه إلى علي بن أبي طالب، وتقريبا يوجد توافق في آراء المؤرخين في نسب مهدي الموحدين ابن تومرت.

على عدم التقيد بمذهب محدد، إذ لا تبدو آراؤه قائمة على نسق مذهبي موحد. بل يظهر أنه استلهم عناصر متعددة؛ فتأثر بالشيعة في قضايا الإمامة والعصمة وفكرة المهدوية، وبالمعتزلة في مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تبدو في آرائه ملامح من التأثيرين الظاهري والأشعري.

ومن هنا يتبدى لنا إشكال معرفي نصوغه كالآتي:

ما هو المذهب الذي اعتمده المهدي ابن تومرت في دعوته؟

أهداف البحث:

- يهدف هذا البحث للمشاركة في ركب الحراك العلمي والبحث في الإشكاليات المتعلقة بأهل المغرب الأوسط (الجزائر) في وقت ندر فيه البحث في الفكر الذي شكل التراث الجزائري.

- التعريف بالمهدي ابن تومرت ومذهبه العقدي باعتباره نقطة تحول في عقيدة أهل المغرب الأوسط

منهج الدراسة:

للإجابة على هذا التساؤل اعتمدنا: المنهج التاريخي وذلك بتتبع الحقائق التاريخية وتوثيقها وتفسيرها، بالإضافة إلى المنهج الوصفي: وذلك بتجميع الحقائق والمعلومات ثم تحليلها وتفسيرها للوصول إلى الإجابة عن تساؤلنا. وقد رافقناهما بألية التحليل من خلال تحليل القضية موضع البحث (وهي حقيقة المذهب التومرتي).

الدراسات السابقة:

قد رجعنا في دراستنا هاته للعديد من المصادر أهمها: كتاب عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره في المغرب، وكتاب عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، والكتب الخاصة بابن تومرت مثل: أعز ما يطلب، وكل الكتب التي تناولت ترجمة المهدي ابن تومرت وتأسيس دولة الموحدين من قريب أو من بعيد.

عناصر البحث:

ولبحث هذه القضية جاء البحث مقسما إلى مقدمة و مطلبين وخاتمة كالآتي:

مقدمة: وعرضنا فيها أهداف البحث ومنهج الدراسة، والإشكالية المقصود معالجتها، وكل شروط الكتابة الأكاديمية. المحور الأول: وتناولنا فيه التعريف بابن تومرت والظروف التي مربها.

المحور الثاني: وقد جاء بأربعة عناصر أساسية تناولنا فيها المذهب التومرتي وأثره.

وقد كان اهتمام المؤرخين بنقل رحلته العلمية كبيراً جداً، وهذا راجع إلى بعض الغموض والتضارب حولها.

وذكر النجار أن إقامة ابن تومرت بالمشرق امتدت بما لا يقل عن عشر سنوات، وقد أخذ فيها عن كل من: أبو حامد الغزالي، والكنيا الهراسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو عبد الله الحضرمي⁵، وهذه الأسماء تمثل المرجعية الأساسية لمذهب ابن تومرت سواء العقدي أو الفقهي.

4- مؤلفاته

خلف المهدي ابن تومرت عدداً من المؤلفات في مجالات متعددة، من أبرزها كتاب "أعزما يُطلب"، إلى جانب مصنفات في أصول الدين والعقيدة. كما نُسبت إليه كتب ورسائل أخرى، منها: كتاب الصلاة، ورسالة في بيان أن الشريعة لا تُثبت بالعقل، ورسالة في العموم والخصوص، وأخرى في طرق العلم وتقسيم المعارف، فضلاً عن "عقيدة التوحيد" و"عقيدة المرشدة"، ورسالة في الإمامة، وأخرى في القواعد تتضمن كليات شرعية، إضافة إلى رسائل في الرد على بعض الفرق، وبيان الطوائف المخالفة، وفضل التوحيد، وذم الخمر، وكتاب في الجهاد، وغيرها من المؤلفات.

ويكشف هذا التنوع في كتاباته عن اتساع اهتماماته وشمولية فكره، كما يعكس في الوقت نفسه نزعة انتقائية في تناوله للموضوعات والقضايا. وقد تولى تلاميذه من بعده نشر هذه المؤلفات والعناية بها، ومن أبرزهم أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وعبد المؤمن بن علي الكومي.

وتُعد هذه المصنفات المصدر الأساسي لفهم دعوة ابن تومرت، إذ توثق أفكاره وتوجهاته، كما تشكل مرجعاً رئيسياً لتتبع نشأة حركة الموحدين وبدايات قيام دولتهم⁶.

هذا التنوع الذي نلمسه في كتاباته التي كانت في مختلف الميادين يدل على شمولية فكره من جهة وعلى انتقائيته من جهة أخرى، وقد اعتنى بإخراجها طلابه بعد ذلك أمثال: أبو بكر الصنهاجي المعروف بـ "البيذق"، وعبد المؤمن بن علي الندرومي⁷....

وتعتبر تصانيف ابن تومرت المصدر الأول لحركته وقيام دولته، وكل أخباره وأخبار ابتداء أمر الموحدين.

5- وفاته:

عند اقتراب وفاة الإمام المهدي ابن تومرت، خاطب أصحابه داعياً إياهم إلى سؤاله عما يشاؤون من أمور دينهم

"وهرة قبيلة المهدي بن تومرت قبيلة مصمودية اسمها البربري أرغن مساكنها جنوبي وادي سوس إلى الشرق في مدينة روادنة"³.

2- مولده

ذكر الزركشي الاختلافات التي وردت حول مولد ابن تومرت فأورد في كتابه تاريخ الدولتين أربع آراء "ولد سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وقال ابن خلكان سنة أربع وثمانين وقال ابن الخطيب الاندلسي سنة ست وثمانين وقال الغرناطي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة"⁴، وكان مولده في قبيلة هرة من قبائل المصامدة كما أوردنا قبلاً.

3- رحلته في طلب العلم والمشايخ اللذين أخذ عنهم

أظهر المهدي ابن تومرت منذ صغره ذكاءً لافتاً واهتماماً كبيراً بطلب العلم، إذ كان شديد التعلق بالمساجد وملازمتهما، الأمر الذي لفت انتباه أسرته وقومه، وجعله يتميز بين أقرانه. وقد أشار ابن خلدون إلى هذه السمة بقوله إنه نشأ قارئاً محباً للعلم، وكان يُلقب بـ "أسفو" أي الضياء، لكثرة ما كان يوقد القناديل في المساجد بسبب إقباله عليها وملازمته لها.

وقد كان هذا الشغف بالعلم أساساً في تشكيل شخصيته لاحقاً، خاصة من خلال رحلاته العلمية، إذ نما لديه طموح كبير للتوجه إلى المشرق والنهل من علومه والتعلم على علمائه.

وفي هذا السياق، يذكر عبد الواحد المراكشي أنه رحل إلى المشرق سنة 501 هـ طلباً للعلم، فوصل إلى بغداد، حيث تتلمذ على أبي بكر الشاشي في أصول الفقه وأصول الدين، كما سمع الحديث من المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين، وقيل إنه التقى أبا حامد الغزالي في الشام.

كما أورد ابن خلدون في "كتاب العبر" تفاصيل هذه الرحلة، مبيّناً أنه توجه إلى المشرق في مطلع القرن السادس الهجري، مروراً بالأندلس حيث دخل قرطبة، ثم واصل طريقه إلى الإسكندرية، وأدى فريضة الحج، قبل أن يصل إلى العراق ويلتقي بكبار العلماء، ومن بينهم – كما يُروى – الغزالي. وقد عاد بعد ذلك إلى المغرب وقد تزود بعلوم غزيرة. وتأثر خلال هذه الرحلة بأئمة الأشاعرة من أهل السنة، فأعجب بمنهجهم في الدفاع عن العقيدة باستخدام الأدلة العقلية، وتبنى رأيهم في تأويل النصوص المتشابهة، مخالفاً بذلك ما كان سائداً في المغرب من الالتزام بمنهج السلف القائم على تفويض المعاني وإمرار النصوص كما جاءت.

أبرز قادة المرابطين، بدأت مرحلة جديدة من التفاعل بين هذين النمطين الاجتماعيين.

حصل بينهما مزيد من التمازج والأخذ والعطاء، انتهى إلى فشو للمظهر الحضري بالمدن الكبرى للمغرب وعلى رأسها مراكش. ولعل هذا سبب شيوع مثل هاته المظاهر.⁹

المحور الثاني: مكونات المذهب التومرتي

أشار عبد المجيد النجار إلى أن أهل الأندلس والمغرب ظلوا إلى حدود القرن الخامس الهجري متمسكين بالمنهج السلفي في العقيدة، حيث اتسم إيمانهم بالبساطة والاعتماد على ما ورد عن السلف، مع الالتزام بظاهر النصوص دون الخوض في تأويل المتشابه منها، خاصة فيما يتعلق بالصفات الإلهية، مع الحرص على تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوق. ويُرجع ذلك إلى تأثرهم بمذهب الإمام مالك بن أنس، الذي عبّر عن هذا التوجه بقوله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

وقد أسهمت هذه المرجعية المشتركة في ترسيخ نوع من الوحدة المذهبية والفقهية والعقدية بين أهل المغرب، الأمر الذي جعلهم بمنأى - إلى حد كبير - عن الخلافات والانقسامات التي شهدتها مناطق أخرى من العالم الإسلامي.¹⁰ حمل ابن تومرت معه منهجاً جديداً في التفكير والفهم، سعى من خلاله إلى إعادة تشكيل الحياة العقلية في العالم الإسلامي على أساس الأصول والتأويل العقلي. وقد تأثر في ذلك بمناهج متعددة؛ فاستفاد أحياناً من منهج الأشاعرة، وأحياناً أخرى من طريقة المعتزلة في النظر العقلي، كما استلهم بعض عناصر الفكر الإمامي في الجانب السياسي والاجتماعي، حيث دعا إلى طاعة الإمام وطرح فكرة العصمة.

وفي هذا الإطار، وجه انتقادات حادة لفقهاء المغرب، معتبراً أنهم يميلون إلى التجسيم بسبب اعتمادهم على ظاهر النصوص دون تأويل، وهو نقد يشبه في حدته ما نجده عند بعض المفكرين مثل الغزالي في بعض مواقفه.

وقد اختلف الباحثون في تصنيف مذهب العقدي والسياسي؛ فبينما ذهب بعضهم، مثل أحمد أمين، إلى اعتباره ذا نزعة شيعية وربطوه بالانتساب إلى آل البيت، فإن آخرين رأوا أن فكره مركب ومتعدد المصادر، يصعب حصره في مذهب واحد محدد.¹¹

ذكر عبد الواحد المراكشي أن ابن تومرت لم يكن منضبطاً في مذهبه على اتجاه واحد، بل كان يميل إلى أكثر من مذهب

ودنياهم، وأخبرهم بأنه سيلقى ربه في الغد. ثم أوصاهم بما يشبه وصايا النبي ﷺ، مؤكداً على نبذ التباغض والتحاسد والتقاطع والتدابير، والحث على الأخوة بين المسلمين، وختم كلامه بتكرار عبارة التبليغ تأكيداً على أداء رسالته.

أما بخصوص تاريخ وفاته، فقد اختلفت الروايات في تحديده بدقة. إذ أورد البيهقي روايتين، تشير إحداهما إلى أنه توفي يوم الأربعاء أو الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة 524هـ، كما نقل تفاصيل أخرى تتعلق بتوثيق هذا الخبر وكتابته في تواريخ لاحقة. في حين يذكر ابن خلدون رواية مختلفة، حيث يرى أن وفاته كانت سنة 522هـ.⁸

ويعكس هذا التباين في تحديد تاريخ الوفاة اختلاف المصادر التاريخية وتعدد رواياتها حول سيرة ابن تومرت وأخباره. وقد ظل تاريخ وفاته محل اختلاف بين الباحثين إلى اليوم

2- الظروف السياسية والاجتماعية التي مربها

تشير المصادر التاريخية إلى أن ظهور ابن تومرت جاء في سياق اتسم بانتشار الفتن، خاصة في العهد المرابطي، ولا سيما في الجانب الأخلاقي. فقد أشار عبد المجيد النجار إلى أن كثيراً من المصادر، خصوصاً تلك التي تناولت دعوة ابن تومرت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تذكر شيوع شرب الخمر وانتشار أدوات الطرب، بما يعكس تفشي مظاهر اللهو والمجون، إضافة إلى ظاهرة اختلاط الرجال بالنساء في المناسبات العامة والخاصة.

في ظل هذا الواقع، قاد ابن تومرت سنة 524هـ حركة قوية كان لها أثر بالغ في تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، حيث سعى إلى إحياء القيم الدينية من خلال الدعوة إلى الأصول الجامعة، ونبذ الخلافات الجزئية التي كانت سبباً في التفرق. وقد تزامن ذلك مع حالة من الانقسام السياسي في العالم الإسلامي، حيث كانت دولة بني العباس في مرحلة ضعف، بينما كانت الدولة الفاطمية تنافسها، في حين خضعت الحياة السياسية لدى المرابطين لتأثير الفقهاء المهتمين بالفروع أكثر من الأصول.

وقد أدرك ابن تومرت هذا الوضع، فعزم على تغييره بعد عودته من رحلته إلى المشرق. ويُذكر أن المجتمع الأندلسي قبله كان ذا طابع حضري، في مقابل المجتمع المغربي الذي غلبت عليه البداوة. ومع توحيد المنطقتين في عهد يوسف بن تاشفين، أحد

عظموها وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة".¹⁵

بحسب المذهب الإمامي الاثني عشري، لا يمكن أن يخلو أي عصر من وجود إمام مفترض الطاعة، يكون منصوباً من الله تعالى، سواء آمن الناس به أو رفضوه، وسواء ناصروه أو خالفوه، وسواء أطاعوه أو أعرضوا عنه".¹⁶

فهو خليفة الله في الأرض. وهذا الذي نجده في كلام المهدي في وصفه للنبي داود قائلاً: "جعله الله إماماً في الأرض، وجعله خليفة، وأمره أن يحكم في الناس بالحق، ولا يتبع الهوى، وأمر الناس بطاعته، والأخذ بسنته، والقيام بأمره، والانقياد لحكمه، والافتداء بفعله، والرجوع إلى عمله، وما جعل الله قائماً بالحق في الأرض إلا ليطاع بأمر الله، وما أرسل الله من رسول من الأمم السالفة إلا ليطاع بإذن الله، ثم الأمر كذلك إلى عيسى بعثه نبياً وإماماً..."¹⁷

الإمام عندهم هو القائد الذي يُقتدى به كما يُقتدى بالإمام في الصلاة في أقواله وأفعاله، وهو صاحب الولاية في قضايا الفئ والغنائم، وبه تُنفَّذ الأحكام والحدود، وتُستوفى الحقوق، وتُرجع إليه جميع القضايا الشرعية والقضائية للفصل فيها. وتؤكد الشيعة أن طاعته واجبة ومقررة بنصوص سابقة عندهم.¹⁸

نعتقد أن الأئمة هم أولوا الأمر الذين أوجب الله طاعتهم، وهم الشهود على الناس، وأبواب معرفة الله والوسيلة إليه والدالون عليه. وهم خزنة علمه وترجمان وحيه، وأساس توحيده وحفظه معرفته، ولذلك فهم أمان لأهل الأرض. ويُعد أمرهم امتداداً لأمر الله ونهيمهم امتداداً لنهيه، وطاعتهم طاعة له ومعصيتهم معصية له، وموالاتهم موالة له ومعاداتهم معاداة له. ولا يجوز ردّ أقوالهم، بل إن ردّها يُعد بمنزلة ردّ قول الرسول، ويجب الانقياد لهم والأخذ بقولهم. وبناءً على ذلك، ترى هذه العقيدة أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تُؤخذ إلا من مصدرهم، ولا يصح استنباطها إلا منهم".¹⁹، وهذه ولا شك هي آراء الشيعة حول فكرة الإمامة.

2- العصمة

الأصل الثاني من أصول الشيعة الذي لمسناه عند ابن تومرت. وهذا الذي نص عليه ابن خلدون "وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله: أعز ما يطلب".²⁰

بحسب المسائل. فقد أوضح أنه كان يتبع مذهب أبي الحسن الأشعري في أغلب القضايا العقدية، غير أنه خالفه في مسألة الصفات، حيث اقترب من موقف المعتزلة في نفيمها، إلى جانب بعض المسائل الأخرى المحدودة. كما أشار المراكشي إلى أن ابن تومرت كان يُبطن شيئاً من الميل إلى التشيع، إلا أن ذلك لم يكن يظهر بشكل واضح للعامة، مما يدل على طابع مركّب وغير صريح في توجهاته الفكرية والعقدية".¹²

أولاً- الأثر الشيعي

وتمثل في ثلاث أصول: الإمامة، والعصمة، و ادعاء المهدوية.

1-الإمامة:

أولى ابن تومرت مسألة الإمامة وفروعها اهتماماً كبيراً، وخصّها ببحث مفصل واستدلال واسع لم يحظَ به أي موضوع آخر، باستثناء قضية التوحيد التي كانت في المرتبة نفسها من الأهمية عنده. ويعود هذا التركيز إلى ارتباط الإمامة المباشر بالبُعد السياسي في مشروعه الإصلاحية، إذ كانت ركيزة أساسية في نجاح حركته أو تعثرها.

فقد اعتبر أن استقرار الحركة السياسية يعتمد بدرجة كبيرة على قناعة الناس بمسألة نصب الإمام، وضرورة طاعته والانقياد له، إضافة إلى ما يرتبط بذلك من صفات مثل المهديّة والعصمة، وغيرها من القضايا التي تتصل بمفهوم الإمامة في فكره..¹³

وقد جاء في كتاب أعز ما يطلب نقلاً عنه ما نصه " هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة، وهي ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان، إلى أن تقوم الساعة، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من آدم إلى نوح...، ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل، ليهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل، وان يكون معصوماً من الضلال لأن الضلال لا يهدم الضلال، فالإمام يجب أن يكون معصوماً من الفتن، والجور، والبدع، والكذب، والجهل، والباطل". وهذا الاعتقاد الذي نجده في عقائد الإمامية¹⁴

فقد ذكر محمد رضا المظفر هذا الإلزام فقال " نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين مهما

لهذا التطلع، ولذلك ظهرت هذه الفكرة في عدد من الأديان. وثانيهما أن الواقع التاريخي في مختلف العصور، في الشرق والغرب، اتسم بانتشار الظلم، مما عزز الأمل بظهور قائد عادل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، سواء تحقق ذلك قريباً أو في المستقبل، وقد بدت فكرة المهديّة قادرة على تلبية هذين الطموحين.²⁵

يرى عمار طالبي أن المهدي سيظهر في زمن غربة شديدة، تنقلب فيه الأحوال وتختل فيه الموازين، حيث تُقلب الحقائق، وتُبدل الأحكام، ويُفسح المجال لانتشار الباطل. وقد خصّه الله تعالى بما أودع فيه من معاني الهداية، ووعدّه بإصلاح هذا الواقع وإعادة الأمور إلى نصابها، حتى تُهدم قواعد الفساد ويزول الباطل من جذوره، ويثبت الحق في أصوله، ويعود العلم إلى مصادره الصحيحة، ويعمّ نوره في الأرض بظهوره. وبهذا تتحول الدنيا إلى نظام قائم على الهدي والتقوى، حتى تمتلئ عدلاً بعد أن كانت قد امتلأت ظلماً وجوراً، وفق وعد الله وفضله.²⁶

وعلى نهج الشيعة الإسماعيلية، دعا ابن تومرت إلى فكرة المهدي المنتظر، وقد كان لذلك أثر في قيام دولة الموحدين في المغرب، التي تُعد من أبرز الدول التي ارتبطت بهذه الفكرة، وكان زعيمها محمد بن تومرت. وقد استفاد ابن تومرت من الظروف التي كان يعيشها أهل المغرب في ذلك العصر لترويج دعوته وترسيخها.²⁷

فالمهدي "يقرر أن هذا الزمن قد كثُر فيه الفساد، وأدلهمت فيه الظلمات واشتبت فيه الأباطيل، وانعقدت فيه الجهالات، واختلطت فيه الحقائق وانعكست، وتحكمت فيه الحثالة، حتى صار الجهل علماً والباطل حقاً والمنكر معروفاً والجور عدلاً، ولما يحكم ابن تومرت تصوير هذا العنصر المهيء لظهور المهدي، وهو فشو الظلم والفساد، يترتب عليه نتيجته وهي ظهور المهدي المنقذ من هذا الفساد"²⁸

فلما تفرقت السبل، وتفرقت الآراء، ظهرت الفتن، وتزلزل الأمر، وامتد الهول، ويذهب العلماء، ويظهر الدجالون، ويذهب أهل الحقائق... وماتت السنن وذهب الحق، وارتفع العدل، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل، واسودت بالكفر والعصيان والفسوق، وتغيرت بالبدع والأهواء، وامتلأت بالجور والظلم، والهرج والفتن، وغلب أهل الباطل واستولوا حتى انتهوا بالباطل والجور إلى شأو المطالب²⁹

يُثبت هذا القول للإمام صفة العصمة على وجهٍ صريح وحاسم، ويقرر أنه لا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل والضلال والفتن، ومبرراً من الوقوع في الخطأ أو العمل بالجهل.²¹

وقد أثبت الشيعة قبله العصمة للأئمة مثلهم مثل الأنبياء "ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي، والدليل الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الانبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة، بلا فراق".²²

إلا أن الدكتور النجار يرى أن عصمة المهدي عند ابن تومرت لا تبلغ درجة العصمة المطلقة والشاملة التي يقول بها بعض الشيعة، بل هي أدنى منها. ويشير إلى أن ما قرره ابن تومرت من عصمة الإمام يمكن فهمه في ضوء الشروط التي وضعها كل من أهل السنة والمعتزلة للإمام، غير أنه اكتسب طابعاً فيه قدر من المبالغة، نتيجة الظروف والأحداث التي رافقت دعوة ابن تومرت.²³

ويبرر هذا بقوله "ويبدو أن ما يذهب إليه المهدي أن الإمام لا يكون إلا معصوماً من الباطل ومن الظلم، وهذا يقترب من مفهومي العلم والعدالة عند أهل السنة، وليس بالمعنى الاصطلاحي عند الشيعة، وهذا ما أكدّه النجار بقوله "ويبدو أن العصمة التي ذهب إليها المهدي هي درجة وسطى بين عصمة الشيعة التي أثبتوها للإمام، وبين شروط الإمامة التي وضعها سائر الفرق فيما يتعلق بالعلم والعدالة، وهي تشبه أن تكون الدرجة المثلى لتلك الشروط التي إذا ما تحققت على الوجه الكامل، اقترب حال من تحققت فيه من درجة العصمة بمفهومها الشيعي".²⁴، وعصمة الأئمة هي أحد أقوى ركائز الفكر الشيعي، ودليل آخر للانتماء الشيعي لأفكار المهدي بن تومرت.

3- المهديّة

لقد لعبت فكرة المهدي والمهدوية دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي منذ القرن الأول وحتى اليوم، ويُعزى انتشارها ونجاحها إلى سببين رئيسيين: أولهما أن النفس البشرية تنفر من الظلم وتميل إلى العدل، فإذا غاب العدل في الواقع تعلقت الآمال بقدوم حاكم عادل، فوجد الناس في فكرة المهدي تحقيقاً

في قرارة نفسه بأنه المهدي المنتظر، وإنما استجاب لهذا التوجه عندما رأى فيه مصلحة سياسية تساعد على استقطاب الأنصار، فأيده عملياً من خلال أفعاله دون تصريح مباشر، بدافع المصلحة السياسية أكثر من الاقتناع العقدي.³⁴

ولكن يبدو أن المهدي لم يطلع على الرواية التي ذكرها المراكشي "فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال أنا محمد بن عبد الله.. ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"³⁵

يبدو أن قول ابن تومرت بالمهدية لم يكن قائماً بالدرجة الأولى على اعتقاد عقدي، بقدر ما ارتبط بهدفه الأساسي في الوصول إلى مرتبة سياسية. وقد نبه النجار إلى هذا المعنى بقوله: إن القول بوجود نصب الإمام والعصمة يمثل نصيبه من التأثير بالتشيع، أو من مذهب الشيعة الإمامية على الأرجح، غير أنه بعد ذلك لا نجد له صلة واضحة بهذا المذهب، ولا ميلاً إلى التشيع في أقواله أو أفعاله. وعليه فإن هذا التشيع كان ذا طابع سياسي، واستُخدم فيه أحد أقوال الشيعة المرتبطة بنظام الحكم أكثر من ارتباطه بالعقيدة أو الأحكام الشرعية.³⁶

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول (بنفس التنسيق المعتمد لنص المتن)، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول (بنفس التنسيق المعتمد لنص المتن)، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول (بنفس التنسيق المعتمد لنص المتن)...

ثانياً- الأثر الأشعري

لم يكن ابن تومرت أشعرياً خالصاً، كما أنه لم يتبنَّ الأشعرية بالطريقة التي تبناها بها كبار أئمتها، بل اقتبس منها جملة من الآراء واتبع منهجها في بعض الجوانب، مع مخالفته لها في مسائل أخرى، بل ونقدها لها أحياناً بشكل صريح أو ضمني. ولذلك فإن دعوته إلى الأشعرية لم تكن بوصفها مذهباً مستقلاً قائماً بذاته، وإنما جاءت ضمن مشروعه العقدي الأشمل الذي كان يدعو إليه.³⁷

يُعرف المهدي عندهم بست خصائص: الحسب، والنسب، والزمان، والمكان، والقول، والفعل. فأما الحسب فهو منسوب إلى الموحدين، وأما النسب فهو من ذرية فاطمة رضي الله عنها، وأما الزمان فيظهر في آخر الزمان، وأما المكان فهو الموضع الذي تنطلق منه دعوته، وأما القول فهو تصريحه بأنه المهدي، وهو صادق فيما يقول، وأما الفعل فيتمثل في قدرته على فتح الممالك شرقاً وغرباً.³⁰

ويشترط طاعته واتباعه فيقول: "العلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضى بحكمه واجب، والانقياد لكل ما قضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب، واتباع سبيله واجب، والاستمسك بأمره حتم، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم، والاعراض عنه، بعد وعصيانه بعد، والشك فيه بعد، والظن فيه بعد، وخيانتة بعد، والأنفة عنه بعد، وإهمال أمره بعد، والاستخفاف بحقه بعد، وإنكار أموره بعد، والتلبس عن قوله بعد، والتأويل دون تأويله بعد، والسبيل دون سبيله بعد، والعمل بغير سنته بعد، وسنته سنة الله ورسوله، وأمره أمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله، والانقياد له انقياد لله ورسوله... إلى أن يقول وأمر المهدي هو أمر الله".³¹

تتفق بعض الآراء مع ما عند الشيعة في أن البشارة بظهور المهدي من ذرية فاطمة في آخر الزمان، ليملاً الأرض قسماً وعدلاً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، قد وردت في روايات نُقلت عن النبي ﷺ بنقل متواتر، وقد دَوَّنها المسلمون عامة. ويرى الشيعة أن ما يشهده العالم من فساد وظلم واسع، مع الإيمان بأن الإسلام هو خاتمة الأديان، يجعل من الطبيعي انتظار هذا المصلح الموعود (المهدي) الذي يُنتظر أن يخلص البشرية ويصلح حالها.³²

يذكر النجار أن ابن تومرت كان يتحاشى التصريح بأنه المهدي، حتى في خطبة البيعة التي أعلن فيها أمره، كما يشير إلى أنه لا يوجد في مؤلفاته أو رسائله ما يُعد ادعاءً صريحاً بالمهدية. ويضيف أن ابن تومرت كان يستخدم في مراسلاته ألقاباً متعددة لنفسه، دون أن يذكر لقب المهدي بشكل مباشر.³³

لم يتم إعلان المهدية ومبايعة ابن تومرت بها إلا سنة 515هـ، بعد استقراره في السوس. ويرجح النجار أن امتناعه عن التصريح المباشر بدعوى المهدية، والاكتفاء بالتلميح إليها، كان يهدف إلى أن تأتي المبادرة من أتباعه. كما يرى أنه لم يكن يصح

وتلقاها أئمة العلم بالقبول، وحكموا عليه من خلالها بسلامة العقيدة وصحة المذهب، وقد كانت من أول ما أُملي من تأليفه، ولقن أصحابه من العقيدة على مذهب الامام الأشعري لأنها بمثابة المقدمة في هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الادل العقلية التي لا يدركها العموم كما في عقيدة التوحيد، ولأنها جاءت خالية من كل شعبة، على ما كانت عليه دعوته أولا قبل ان يدعي المهدوية والامامة والعصمة، ويتجرد للعمل السياسي الذي أقام به بناء الدولة الجديدة...⁴³

وقد شاعت المرشدة في المشرق والمغرب وكثرت حولها الشروح من قبل علماء المسلمين، وشرح متن المرشدة كلهم هدفوا إلى توضيح معاني هذه العقيدة والكشف عن مضامينها، وليؤكدوا من جانب آخر الدور الذي قامت به مرشدة ابن تومرت من تدعيم وتثبيت دعائم المذهب الأشعري بالغرب الاسلامي بحيث إنها شكلت على امتداد قرون إطارا مرجعيا لأشاعرة الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا.⁴⁴ ولعل الأثر الأشعري في فكر ابن تومرت دل عليه أكثر جلوسه في حلقات العلم لأكثر أئمة الأشعرية في العالم الإسلامي؛ وأهمهم الإمام الغزالي.

ثالث: الاثر المعتزلي

وبتمثل في: أ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر عبد الواحد المراكشي أنه في سنة 515هـ ظهر بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت، متقمصا دور الداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.⁴⁵

كان من أبرز الأسس التي قام عليها مشروع ابن تومرت في تأسيس دولته إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ احتل هذا المبدأ مكانة محورية في فكره وسلوكه. ويمكن القول إنه شكّل محوراً رئيسياً في حياته فكرياً وعملياً، منذ بداية عودته إلى وطنه وحتى آخر أيامه.⁴⁶

"وقد جعل مفهومه" القيام بأمر الله"، وهو مفهوم يشمل العمل على إنفاذ كل ما أمر الله بإنفاذه، والعمل على منع كل ما أمر الله بمنعه مهما كان صغيراً أو كبيراً".⁴⁷

ذهب ابن تومرت في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أقصى ما وصلت إليه مختلف الفرق الإسلامية، سواء من حيث التصور النظري أو التطبيق العملي. فقد رفعه إلى مرتبة الوجوب التي تشمل الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، حتى يبدو أنه جعله جزءاً من البناء العقدي. ويُفسر ذلك إصراره المستمر على تطبيق هذا المبدأ في السلوك اليومي، في

لكن ذهب عبد المجيد النجار أن "أكثر الباحثين في المهدي و أرائه، يصورون الأشعرية على أنها أهم مصدر من مصادر أرائه الفكرية".³⁸

فبعد رجوعه من رحلته إلى المشرق، قدر له أن يكون الانتشار الأوسع للأشعرية بالمغرب على يديه، وأن يكون لتعاليمه الدور الحاسم في اعتناق كافة أهل المغرب لهذه العقيدة إلى هذا اليوم.³⁹

وهذا الذي نص عليه ابن خلدون قبله في ديوانه العبر بقوله: "و كان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في التأويل وإمرار المتشابهات كما جاءت، وبعد عودته من رحلته هاته عمل على نشر أشعريته بكل الطرق والوسائل الممكنة، فحملهم على التأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد".⁴⁰

وقد أشار عبد الواحد المراكشي إلى ذلك أيضاً حيث إن ابن تومرت شرع في تعليم العلم والدعوة إلى الخير دون أن يُظهر ادعاءً للسلطة أو طلباً للملك، حيث أُلّف لأتباعه عقيدة بلغتهم، وكان من أفصح أهل زمانه فيها. ومع فهمهم لمعاني تلك العقيدة ازداد تعظيمهم له، وتعلقت به قلوبهم، ومالوا إلى طاعته والانقياد له. ويشير بذلك إلى "المرشدة".⁴¹

ولا يمكن أن نتحدث عن تأثير ابن تومرت في انتشار الأشعرية في بلاد المغرب دون أن نعرج على رسالته المعروفة ب"المرشدة"، وقد سميت بهذا الاسم لأنه جاء في مطلعها "اعلم ارشدنا الله وإياك....". فساهم هذا المتن في دمج آراء ابن تومرت في المذهب الأشعري، فكما يقول النجار "هذه العقيدة ذات صبغة أشعرية خالصة، خالية من كل قول من الإمامة وما يتعلق بها، وإلزام العامة بحفظها وتفهمها، سيكون له دور كبير في انتشار الأشعرية في عامة الناس انتشاراً واسعاً". فقد كان لها دور كبير في إشاعة الأشعرية بين أهل المغرب عموماً وأهل المغرب الأوسط خصوصاً، وكان لها تأثير في تحول التصور العقدي المغربي من تصور سلفي إلى تصور يقوم على التأويل.⁴² يقول عبد الله كنون معلقاً على هذه العقيدة: "إن عقيدة المرشدة التي لقيت رواجاً كبيراً في حياته وبعد مماته،

الشرعية، وفي نقدهما للتقليد، مع الدعوة إلى الرجوع المباشر إلى القرآن الكريم والحديث النبوي والإجماع في استنباط الأحكام في إطار اجتهادي مباشر دون وسائط في الفروع الفقهية. كما يظهر التقارب أيضًا في تحديد معنى الأمر، حيث ذهب كلٌّ منهما إلى أنه يفيد الوجوب.⁵⁴

وقد شاع هذا الاتجاه في عهد دولة الموحدين التي أسسها ابن تومرت، حيث أشار إسماعيل بن الأحمر صاحب *بيوتات فاس* إلى أن ملوك الموحدين تمسكوا بالمذهب الذي عُرف عنهم، متبعين في ذلك المهدي زعيمهم الأول، الذي كان يدعو إلى إنكار الرأي في الفروع الفقهية، والاقتصار على الأخذ بالظاهر.⁵⁵

وقد أشار عدد من الباحثين إلى نزعة ظاهرية في الدولة الموحدية، ومنهم محمد عدنان، الذي يرى أن التراث الفكري والديني للمهدي كان من أهم ما يُعتنى به، وأن ابن تومرت في أصول شريعته دفعه ذلك إلى الاجتهاد، مع تمسكه بالتفسير الظاهري للنصوص.⁵⁶

ويذهب سعيد قدور إلى أن ابن تومرت وجّه العامة نحو مذهب ابن حزم، ويذكر أنه لما استقر الأمر للأمير عبد المؤمن، جمع الفقهاء إما لاختيار مذهبهم أو لحملهم على مذهب ابن حزم. وهو المعنى نفسه الذي يشير إليه صديقي عبد الجبار، حيث يذكر أن عبد المؤمن كان يعقد اجتماعات مع الفقهاء المالكية يدعوههم فيها إلى ترك كتب الفروع، بل تجاوز ذلك إلى إحراقها، وإلزام الناس بالعمل بالكتاب والسنة. وقد استمر هذا النهج عند تلاميذ ابن تومرت وخلفاء الموحدين، الذين عملوا على نشر الاتجاه الظاهري وتعزيزه.⁵⁷

المحور الثالث: دور المذهب التومرتي في قيام دولة الموحدين

أولاً: توحيد القبائل البربرية

تميز ابن تومرت بذكاء حاد وذلك بضمه للعديد من القبائل البربرية لدعوته، وقام بقتال القبائل التي كانت تخالف دعوته ومنهجه، وكان عامل العصبية القبلية لتبني الدعوة عامل مهم في قيام دولة الموحدين.

فقد استفحلت دعوة ابن تومرت وأضحت قوة فعالة، واستحكمت في وسط البربر الذين اقتنعوا بقوة كلماته وما شهدوا به من غزارة علمه وقدرته على الإقناع مع قوة الحجة مخاطباً إياهم باللغة العربية والبربرية فكان الاقبال منقطع النظير من قبل لأفراد قبيلته مصمودة وما جاورها.⁵⁸

أدق التفاصيل وأعظمها، وباستخدام مختلف الوسائل، من التوعية والتعريف إلى القوة والسيف.⁴⁸

ويؤكد صاحب كتاب *المعجب هذا المعنى*، حيث يذكر أنه لما استوثق ابن تومرت من أتباعه دعاهم في البداية إلى العمل على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيه، فاستمروا على ذلك مدة من الزمن. ثم كلف بعضهم، ممن رأى فيهم رجاحة عقل، بالدعوة وجذب رؤساء القبائل، وكان أكثر من ذكر المهدي ويثير الشوق إليه، كما جمع الأحاديث الواردة في شأنه المنسوبة إلى رسول الله ﷺ من مصادرها.⁴⁹

. وقد مارس ابن تومرت الأمر بالمعروف في كل مكان حل فيه فهو لما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر من أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم

ونُقل عنه أنه كان يجلس أحياناً على الطرقات يراقب المارة، فإذا رأى شيئاً من آلات اللهو أو أواني الخمر قام بكسرها. كما كان ينهى عن تشبه الرجال بالنساء، وعن استعمال الدفوف وسائر أدوات اللهو. وكان يوصي أصحابه بقوله: "اكسروا ما وجدتم من مظاهر اللهو"، وكان يخرج إلى الأسواق بنفسه ليغير المنكر، فيكسر المزامير وسائر أدوات اللهو التي يراها محرمة.⁵⁰

رابعاً: ظاهرة ابن تومرت

يشير عدد من الباحثين إلى تأثير ابن تومرت بالمذهب الظاهري كما تبلور عند ابن حزم، سواء في بعض آرائه العقدية أو في جانب من تصوّراته الأصولية. كما أن المقارنة بينهما تكشف عن وجود قدر ملحوظ من التقارب في بعض الأفكار، بما قد يسمح بالقول بوجود أثر أو تأثير فكري بينهما.⁵¹

"ويذكر الشاطبي عند حديثه عن ابن تومرت أنه كان يميل إلى ترك الاعتماد على الرأي، والاتجاه إلى اتباع منهج الظاهرية في الاستدلال."⁵²

ويبدو هذا التشابه واضحاً في الجانب العقدي، خاصة في مسألة الصفات الإلهية، حيث انتهى كلٌّ منهما إلى معالجة هذه القضية في ضوء ما ورد من أسماء الله تعالى وصفاته. كما يظهر هذا التقارب أيضاً في تقرير صفة الإرادة الإلهية، وفي تحديد حكم مرتكب الكبيرة.⁵³

أما في جانب الأصول، فيتجلى هذا التشابه بوضوح في رفض كلٍّ منهما للقياس كمصدر مستقل لاستنباط الأحكام

الجناب في استعماله رؤوس القبائل لدعوته: مقاومة دولة المرابطين

كان المذهب التومرتي عنصر فعال في معارضة دولة المرابطين ورميم بخروجهم عن العقيدة الصحيحة مما أدى إلى الإفراط في التشدد الفقهي. وعليه يمكن إجمال الأسس الدينية التي بها أعطى الصبغة الشرعية لقيام دولته وكان ذلك بادعاء الإصلاح الديني يدعوا من خلاله إلى التمسك الصارم بالتوحيد ومحاربة الانحرافات الدينية وتصحيح العقيدة فعمل على إعطاء حركته تصور ديني وليس مجرد ادعاء سياسي. ونجد ادعاء المهدوية أيضا من أكبر العوامل التي ساعدته على تأسيس دولته حيث هذا الادعاء منح حركته الطاعة المطلقة وكذلك صفة الجهاد ضد خصومه أي المرابطين وتكفيرهم ووصفهم بالضلال والابتداع وأباح قتالهم واعتبر حربهم جهاد له كامل الشرعية الدينية.

ثالثا: تأسيس دولة مركزية قوية

بدأت عملية التأسيس لأركان الدولة الجديدة التي كان يظهر من خلال اقدام ابن تومرت على إلزام أتباعه باتباع هديه وابداء الطاعة التامة له والاقتداء بأفعاله والرضى لحكمه والانقياد لكل ما قضى به بأنه واجب فأمره أمر الله ورسوله وهو أعلمهم بالله وأقربهم إليه، فعمل على إرسال الدعاة إلى النواحي والأقاليم للتبشير بالمهدي المنتظر الذي ظهر في جبال هرغة ليتم أمره ويظهر دينه⁶²

فقد أدى ظهور المذهب التومرتي إلى فرض طاعة القائد والانضباط وتوحيد القوانين على أساس الشريعة وتنظيم الإدارة وتقوية الجيش .

خاتمة

رغم قصر حياة الإمام المهدي ابن تومرت إلا أن نجاحه كان باهرا مقارنة بهذا ويمكننا أن نختم بالنتائج التالية:

1- الشمولية في التغيير: التغيير السياسي والديني هي التي مكنت الانتشار لمذهبه واعتناق الناس له.

2- للسلطة السياسية دور كبير في تثبيت المذاهب.

3- المذهب التومرتي مذهب انتقائي فقد جمع بين عدة مذاهب

4- أقام ابن تومرت دولة تجتمع فيها عقائد من فرق مختلفة سنية وشيعية ، إلا أن السمتين الأشعرية والشيعة تكاد تكونان الأبرز، فالتأثر الشيعي يبدو الجانب الطاعي في مذهب ، فهو يغترف من عقائد الشيعة ما يخدم فكرته، بادعائه النسب

كان ابن تومرت ذكي في جلب انصاره وذلك بجعل انصاره طبقات بحسب اخلاصهم له وحاول الاقتداء برسول الله وقسم اصحابه إلى طائفتين ، كأنهم المهاجرين والانصار من الصحابة واصحاب محمد بن تومرت الاوائل هم طبقة العشرة، وهم اول من بايعه وامن بانه المهدي المنتظر والانصار هم طبقة الخمسين ومن ثم طبقة السبعين وبعدها طبقة الطلبة الحفاظ وطبقة اهل الدار اما الطبقات الاخرى من السابعة إلى الثالثة عشر فهي طبقة القبائل وقد هدف محمد ابن تومرت في تنظيم زعماء القبائل في هذه الطبقات لكي يضمن ولاءهم وبالتالي ولاء قبائلهم كما هدف إلى نقل ولاءهم من القبيلة إلى الطبقة وبالتالي للنظام الموحد⁵⁹

ولا شك ان من أقوى العوامل والأسباب في نجاح دعوة ابن تومرت هو حسن توظيفه واستغلاله لعصبية قبائل مضمودة ضد قبائل المرابطين الصناهجة وتعمق العداء بينهما منذ زمن بعيد نتيجة الاختلاف في نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية بين هذه القبائل⁶⁰

وعليه فان تمكن ابن تومرت من جمع قبائل المصامدة وغيرها تحت راية دولة واحدة وذلك بربطه بين الولاء الديني والولاء السياسي حيث كون جماعة منظمة من الاتباع المخلصين وجعل الانتماء للدعوة أهم من الانتماء القبلي

ثانيا: اعطاء الصبغة الشرعية

وذلك بتوفير الشرعية الدينية لمذهبه، فكان الدين اساس لقيام دولته فقد تطفن ابن تومرت إلى سذاجة عامة بلاد المغرب الاسلامي وبساطتهم وبدائية معارفهم فراح ينتحل الكرامات، ويتفنن في الخدع ليتمكن لنفسه ولعقيدته، فاخترق حادثة نزول الملائكة لمباركة دعوته وتزكيتها وكلام الأموات الذين نطقوا من قبورهم ليشهدوا له بصدق دعوته⁶¹

جعل ابن تومرت فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من اهم عقائده وبها استطاع تهذيب اخلاق أتباعه وعلمهم النظام والطاعة واحترام صغيرهم لكبيرهم ومحبة الوالدين والجهاد في سبيل الله والتضحية بالنفس والمال في سبيل الحق - حسب رايهم - وبذلك اوجد ابن تومرت جيلا من انصاره يستطيع به ان يحقق اهدافه فقد تفانوا في خدمته فلما استوثق من اخلاص أتباعه اتخذ منهم دعاة يشتركون معه في قيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتذاب القبائل للانخراط في سلك الدعوة الموحدية كما استخدم ابن تومرت الرسائل ذات الاسلوب

7. أمين، أحمد، 1951م، المهدي والمهدوية، مصر: دار المعارف.
8. البيذق أبي بكر بن علي الصنهاجي، 1971م، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. الرباط: دار المنصور.
9. الزركشي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الولي، 1966م، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس: المكتبة العتيقة.
10. بشير، مبارك. (6، 3، 2018). المذهب الظاهري بالغرب الإسلامي: عوامل الدخول والانتشار. مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية.
11. عبد الغني أبو العزم، 2007م محمد بن تومرت أعز ما يطلب. الجزائر: عاصمة الثقافة العربية.
12. خلدون عبد الرحمن. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. السعودية -الأردن: بيت الأفكار الدولية.
13. خليفة، حامد محمد، 2003م، يوسف بن تاشفين موحد المغرب، وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين. دمشق: دار القلم.
14. عشي، علي. (30، 5، 2015). محنة المذهب المالكي و مرجعيته خلال الفترة الموحدية أو الصراع الظاهري المالكي بين الحقيقة والخيال. الإحياء، باتنة، الجزائر.
15. فيلاي، بلقاسم (31، 12، 2016). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أحكام الشريعة وممارسات الموحدين مجلة المعيار، الجزائر، العدد 41،
16. كنون عبد الله، 1980م، جولات في الفكر الإسلامي، المغرب: مطبعة الشيوخ.
- الشريف والاعلان بأنه المهدي المنتظر المعصوم...، والتأثر الأشعري يتجلى من خلال المرشدة.
- 5- سار خلفاؤه على منواله فقد كان لتلاميذه ومن أخصهم عبد المومن بن علي النندرومي الفضل في نشر مذهبه وتوسعته.
- 6- يمثل المذهب التوفيقي لابن تومرت الذي وفق فيه وجمع بين عدة عناصر، نقطة قوة الدولة الموحدية، خاصة في بداياتها، وقبل اسقاط فكرة المهدوية، وهذا الذي جعل المغرب الإسلامي يتخذ صورة ذهنية جديدة ميزها التنوع في المرجعيات.
- وعليه فإن المذهب التومرتي هو العامل الأساسي في قيام دولة الموحدين اذا استطاع توفير الأساس العقدي والوحدة القبائلية مع التنظيم السياسي كل هذا تحت الصبغة الشرعية الدينية.
- . قائمة المراجع:**
1. الاشبيلي، ابو عبد الله محمد بن خليل السكوني، 1993، مشرح مرشدة محمد بن تومرت، بيروت -لبنان: دار الغرب الإسلامي.
2. الصنهاجي، أبي بكر بن علي، 1997م، الأنساب في معرفة الأصحاب، الرباط: دار المنصور.
3. الفاسي، ابن أبي زرع، 1972م، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور.
4. المراكشي، عبد الواحد، 1949م، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة: مطبعة الاستقامة.
5. المظفر، محمد رضا، 1968 م، عقائد الإمامية، النجف: مطبعة النعمان.
6. النجار عبد المجيد، 1983 م، المهدي بن تومرت حياته وأراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره في المغرب، تونس: دار الغرب الإسلامي.

. الهوامش:

¹¹ خلدون، ب، ت، صفحة 1668
¹² المراكشي، 1949م، صفحة 199
³ بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، (1971م)
⁴ بالزركشي، 1966م، صفحة (11)
⁵ النجار، مرجع سابق، صفحة 73
⁶ المراكشي، مرجع سابق، صفحة 209
⁷ كنون، 1980م، صفحة 94 وما بعدها
⁸ خلدون، مرجع سابق، صفحة 1670
⁹ النجار، مرجع سابق، صفحة 58

- ¹⁰النجار، مرجع سابق، صفحة 55)
- ¹¹أمين، 1951م، صفحة 35
- ¹²المراكشي، صفحة 209
- ¹³النجار، مرجع سابق، صفحة 234
- ¹⁴تومرت، مرجع سابق، صفحة 231 وما بعدها)
- ¹⁵(المظفر، عقائد الإمامية، 1968م، صفحة 65
- ¹⁶المظفر، مرجع سابق، صفحة 67
- ¹⁷(تومرت، مرجع سابق، صفحة 230
- ¹⁸(تومرت، مرجع سابق، صفحة 232)
- ¹⁹(المظفر، مرجع سابق، صفحة 70)
- ²⁰(خلدون، مرجع سابق، صفحة 1668)
- ²¹(النجار، مرجع سابق، صفحة 249
- ²²المظفر، مرجع سابق، صفحة 67)
- ²³النجار، مرجع سابق، صفحة 250
- ²⁴(النجار، مرجع سابق، صفحة 252)
- ²⁵(أمين، مرجع سابق، صفحة 6، 7)
- ²⁶تومرت، مرجع سابق، صفحة 234
- ²⁷(أمين، مرجع سابق، صفحة 35)
- ²⁸النجار، مرجع سابق، صفحة 234
- ²⁹(تومرت، مرجع سابق، صفحة 232، 233.
- ³⁰(تومرت، مرجع سابق، صفحة 245)
- ³¹تومرت، مرجع سابق، صفحة 235
- ³²(المظفر، مرجع سابق، صفحة 78)
- ³³النجار، مرجع سابق، صفحة 244
- ³⁴(النجار، مرجع سابق، صفحة 245)
- ³⁵(المراكشي ع.، مرجع سابق، صفحة 208
- ³⁶كنون، مرجع سابق، صفحة 93
- ³⁷النجار، مرجع سابق، صفحة 441)
- ³⁸(النجار، مرجع سابق، صفحة 356)
- ³⁹(النجار ع.، صفحة 441
- ⁴⁰(خلدون، مرجع سابق، صفحة 1668)
- ⁴¹المراكشي ع.، مرجع سابق، صفحة 208
- ⁴²(النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 444
- ⁴³كنون، مرجع سابق، صفحة 96
- ⁴⁴الاشبيلي، 1993م، صفحة 6، 5
- ⁴⁵المراكشي، مرجع سابق، صفحة 199
- ⁴⁶(النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 276)
- ⁴⁷النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 277)
- ⁴⁸النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 281
- ⁴⁹(المراكشي، مرجع سابق، صفحة 208)

⁵⁰ (فيلاي، 2016، صفحة 5).

⁵¹ النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 360

⁵² عشي، 2015، صفحة 3

⁵³ النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 361

⁵⁴ (النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 361

⁵⁵ عشي، مرجع سابق، صفحة 3

⁵⁶ (النجار ع.، مرجع سابق، صفحة 361

⁵⁷ (بشير، 2018، صفحة 23)

⁵⁸ ابن خلدون، 304.

⁵⁹ (السامرائي، صفحة 286)

⁶⁰ (الشيخ، 2022، صفحة 674)

⁶¹ الأثير، 1985، صفحة 195

⁶² (القاضي، 1986، صفحة 128)